الشبهة السابعة والعشرون
دعوى مخالفة السنة للعقل

ومما يروجه منكرو السنة ادعاؤهم أن السنة ورد فيها أحاديث كثيرة تخالف العقل، وهدفهم إحداث ثلمة فى صرح السنة ، تضاف إلى ما قدموه من شبهات، معتقدين أن هذه الشبهات يقوى بعضها بعضا ، وأنها لابد من إحداث الهدف المقصود فى النهاية إذا أمكن لهذه الشبهات أن تترسب فى أذهان الناس ، أو فإنها ستحدث إرباكا عندهم يزعزع إيمان العامة فى السنة ، ويزيل عنها ثوب القداسة الذى ألبسها إياه القائمون على شئون التقديس كما يحلو لبعضهم أن يقول .

تفنيد هذه الشبهة ونقضها :

نريد أولاً أن نلفت نظر القراء إلي أن المقصود بهذه الشبهة فوق المقصود «الأم» لهم من هذه الشبهات جميعا ، وهو إنكار السنة النبوية الطاهرة . المقصود الخاص بهذه الشبهة هوتكذيب المعجزات المادية ، التى أجراها الله على يد رسوله الكريم بالإضافة إلى المعجزة المعنوية الخالدة ، وهى القرآن الكريم . وهى معجزات كثيرة أوصلها الإمام البيهقى في كتابه العظيم المسمى دلائل النبوة إلي ما يقارب الألف معجزة .

كما أحصى كثيرا منها الإمام ابن كثير فى كتابه المسمى « شمائل الرسول » وتحدث عنها الإمام ابن تيمية في كتابه المسمى « الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح » وقد بيَّن أن الله تعالى أيد محمداً ﷺ بمعجزات من جنس ما أيد به جميع رسله الكرام .

وقد صرَّح بعضهم بإنكار بعض المعجزات مع ورود الإشارة إليها فى القرآن الكريم :

مثل شق الصدر ، والمعراج ، والبراق ، والصلاة فى بيت المقدس بالأنبياء وانشقاق القمر .

ومثل حنين الجزع إليه ، وتكليم بعض الحيوانات العجماوات له ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام القليل حتى يشبع العدد الكثير . والعلم بالحديث النفسى لدى الآخرين .

كل هذه عندهم أكاذيب ؛ لأنها تخالف العقل ، فيجب ردها وعدم الإيمان بها .

كما يدرجون تحت هذه الشبهة كل ما تحدث به ﷺ من الغيبيات ، وإن كانوا يدعون إلي تكذيب الغيبيات بإعمال شبهة أخرى هى « مخالفة القرآن »، وقد تقدم لنا تفنيدها ونقضها » .

هل من الممكن مخالفة السنة للعقل ؟

وللإجابة على هذا السؤال لابد من تمهيد ، وخلاصته : أن الممنوع عقلا نوعان :

الأول : ماله سبب أو علة يتوقف عليها وجوده ، فإن العقل يمنع وقوعه إذا لم يسبقه سببه أو علته ، مثل الارتواء بدون شرب الماء ، والشبع بدون تناول غذاء والصعود إلي الفضاء بدون حامل أو دافع ، والإحراق بدون مماسة نار، والانجاب بدون لقاء بين الزوجين أو ذكر وأنثى ، والإسماع بدون صوت، وعبور البحر بدون وسيلة ناقلة أو سباحة ، ومماسة جسم لآخر بدون اقتراب . والعلم بما يدور فى النفس بدون إفصاح ، والإبصار بالأشياء بدون إيقاع النظر عليها .

هذه الصور كلها يمنع العقل وقوعها لعدم تقدم أسبابها أو عللها عليها . ومنع العقل لوقوع هذه الأشياء نسبى كما سيأتى .

النوع الثانى : ما ليس له سبب أو علة يتوقف وجوده عليها وهذا يمنعه العقل منعا مؤبداً ، ولا يحدث فى المنع خلل أبداً .

وهذا ما يسمى بالبدائه العقلية ، أو الضرورات العقلية مثل تقدم الوالد على أبنه في الوجود الزمنى ، وكون الجزء أصغر من الكل ، والواحد نصف الاثنين، واليوم واسطة بين أمس وغد ، وامتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما عن المحل كالموت والحياة ، والوجود والعدم ، فلا يكون إنسان ما ، أو أى كائن مما تحله الحياة ، لا يكون حيا ميتا فى آن واحد ، ولا يكون لا حيا ولا ميتا فى آن واحد .

ومثل اجتماع الضدين فلا يكون الشئ أبيض وأسود فى آن واحد .

ومثل أن الشئ غير نفسه ، وأن يكون أمس هو اليوم أو غدا .

هذه الصور كلها ، وغيرها كثير ، يمنع العقل حدوثها منعا قاطعا فى جميع الأزمان والأكوان .

وبناء على ما تقدم نقول بكل جزم وإصرار :

أن الحديث النبوى لم يرد فيه مثال واحد يخالف حكم العقل فى النوع الثانى ، ومن يدعى هذا فعليه أن يأتينا بالدليل ونتحدى منكرى السنة مجتمعين ومفترقين أن يجدوا فى السنة ما يدل على هذه المخالفة لأنه مستحيل ، والمستحيل لا تتعلق به إرادة ولا قدرة . فهو – كاسمه – مستحيل أبداً أما النوع الأول ، وهو تخلف السبب أو العلة مع وجود المسبب فإن السنة تتفوق فيه على العقل ، ولا يكون إلا على سبيل المعجزة لنبى ، أو الكرامة لولى ، أو الاستدراج لشقى .

وما جعل الله هذه المعجزات الخارقة لكل مألوف عقلى أو علمى ، إلا ليقهر بها غرور العقل وغرور العلم .

وإلا فماذا يملك العقل من نجاة إبراهيم – عليه السلام – من النار التى أضرمها له أولياء الشيطان ثم ألقوه فيها فلم تمسه بسوء قط وماذا يملك العقل من شأن عصى موسى – عليه السلام – فى أوضاعها الثلاثة :

مرة تنقلب ثعبانا يبطل السحر ، ومرة ينفلق بها البحر اثنى عشر فلقا كل فلق كالطود العظيم .

ومرة يضرب بها الحجر فيتدفق منه الماء عيونا اثنتى عشرة كالفلوق التى حدثت فى الضربة الأولى .

إن ضربة من الضربتين هرب بها الماء ، والأخرى حضر بها الماء فكم – يا ترى – يلزم الآن من التجهيزات التكنولوجية لفلق البحر اثنى عشر فلقا ؟!

وكم يا ترى يلزم من الاجراءات التكنولوجية الحديثة لتدفق اثنتى عشرة عينا من الصحراء .

وهل تستطيع كل الوسائل الحديثة المتطورة أن تفجر الماء من حجر ؟!

وهل تستطيع الوسائل العلمية الحديثة ، العالية الكفاءة أن تسخر الجن والطير وجميع القوى الطبيعية كالريح وإسالة الطاقة من الأرض كما حدث من قدرة الله لسليمان عليه السلام ؟

وهل تستطيع جميع القوى البشرية ومخترعاتها المذهلة أن تعيد الروح بعد مفارقتها لجسد ميت ، كما أجرى الله ذلك على يد عبده ورسوله عيسى عليه السلام ، معجزة له على عناد بنى اسرائيل وكفرهم .

وهل تستطيع وسائل النقل المعاصرة أن تقتلع قصراً لرئيس أو ملك أو أمير فى لحظة هى خارج نطاق الزمن عبر آلاف الكيلو مترات دون أن يصيبه أدنى خلل فى نظامه وديكوراته كما صنع الله ذلك معجزة لرسوله سليمان عليه السلام؟!

وهل يستطيع جيش حديث مزود بكل أسلحة الدمار الشامل أن يقتلع قرية من أساسها ويعلو بها إلي طبقات الفضاء الأعلى ثم يلقيها على الأرض مرة أخرى سطحها أسفل ، وقاعها أعلى كما صنعت القدرة الإلهية مع قوم لوط ؟

اين العقل هنا ؟ وماذا يملك إلا التسليم العاجز الخذول ؟

ونسأل منكرى السنة ، أو منكرى أحاديث المعجزات النبوية لرسول الإسلام . نسألهم هذا السؤال . وعليهم أن يجيبوا عليه – لأنفسهم – بكل صراحة ، لتعرفوا حجم باطلكم :

هذه الوقائع المذهلة ، التى أيد الله بها بعض رسله ، وأشرنا إليها دون الآيات التى قصتها علينا توخيا للإيجاز ، هذه الوقائع – بلا ريب – تخالف العقل مخالفة ، من النوع الأول الذى بيناه فى التمهيد الذى تقدم .

هل أنتم مؤمنون بها ؟ إن كنتم مؤمنين بها فيلزمكم الإيمان بالأحاديث التى قصت علينا مثل ما قص القرآن فى سور : (الأنبياء والمائدة وآل عمران وغيرها) .

وإن أصررتكم على تكذيبكم لهذه الأحاديث لزمكم أن تكذبوا القرآن لأنه روى مثل ما روت هذه الأحاديث . فأنتم محجوجون من كل جهة ، مقهورون أمام صولة الحق . فماذا أنتم فاعلون ؟!

وبهذا تندفع هذه الشبهة كما اندفع غيرها . ويفوت منكرى السنة غرضهم الذى رتبوه عليها .

إن ورود أحاديث المعجزات فى سنة محمد ﷺ ليس عيبا ترد به هذه السنة، ويحكم عليها بالتزوير والبطلان بل هى دعامة من دعائم الإيمان ، كان من الممكن أن تقود هؤلاء الآبقين من رحابة الحق ، إلي سجين الباطل ، كان من الممكن أن تقودهم إلى الإيمان الراسخ والتصديق الجازم بما جاء به محمد ﷺ من عند ربه (كتابا وسنة) لو أنهم فتحوا للإيمان قلوبهم وأصغوا إليه أسماعهم ، وأرحبوا له عقولهم وقطعوا ما بينهم وبين الشيطان من علائق ووساوس، أيعجز الله عن شق القمر لرسوله ، وقد شق البحر لموسى عليه السلام .

أيمتنع على الله أن يشق صدر رسوله ، وقد حمل لسليمان قصر بلقيس من اليمن إلي الشام . دون شدخ أو خلل .

أيبعد على الله أن يجرى الماء بين أصابع رسوله الكريم وقد فجره من حجر أملس لموسى عليه السلام .

أيستحيل على الله أن يكثر الطعام لرسوله ، وقد أنزله مائدة جاهزة من السماء لعيسى عليه السلام ؟!

لقد أخلصنا لكم القول ، وبقى بيننا وبينكم قوله تعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

* * *